الفصل الخامس

بين المجاز المرسل والكناية
فى لسان العرب

الفصل الخامس

بين المجاز المرسل والكناية فى لسان العرب

يظهر من صنيع صاحب لسان العرب أنه يرى أن اللفظ الواحد يمكن أن يكون مجازاً مرسلاً وكناية باعتبارين.

وقد تبدت لى هذه الرؤية من خلال تناوله لبعض كلمات معينة، فقد أورد فى بعض المواضع ما يفيد أن كلمة (لسان) تطلق على الكلام واللغة، فنقل عن ابن سيده أن (لسان صدق) فى قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] معناه اجعل لى ثناء حسناً باقياً إلى آخر الدهر(١).

وفسر ﴿ لِسَانَ قَوْمِهِ ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤] بلغة قومه(٢).

فليس المقصود من كلمة ﴿ لِسَانَ ﴾ العضو المعروف، وإنما المقصود منه اللغة، أو الكلام، ومعلوم عند البلاغيين أن إطلاق اللسان على الكلام مجاز مرسل علاقته الآلية، وهو أشهر مثال لتلك العلاقة يتردد ذكره فى كتب البلاغة.

ولكنه ذكر فى موضع آخر أن اللسان كناية عن الكلام فقال: «وقطع لسانه أسكته بإحسانه إليه، وانقطع لسانه ذهبت سلاطته، وامرأة قطيع اللسان إذا لم تكن سليطة، وفى الحديث أنه قال لما أنشده العباس ابن مرداس أبياته العينية اقطعوا عنى لسانه أى أعطوه وأرضوه حتى يسكت(٣) فكنى باللسان عن الكلام، ومنه الحديث أتاه رجل فقال إنى شاعر فقال يا بلال اقطع لسانه فأعطاه أربعين درهماً»(٤). فقوله: (فكنى باللسان عن الكلام) صريح فى أنه جعل (اللسان) كناية عن الكلام، وقد رأينا أنه جعله فى الموضع الذى سلف ذكره مجازاً مرسلاً.

---

(١) لسان العرب: ٥ / ٤٠٣٠ (لسن).

(٢) ينظر لسان العرب: ٥ / ٤٠٣٠ (لسن).

(٣) الحديث فى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤ / ٨٣.

(٤) لسان العرب: ٥ / ٣٦٧٦ (قطع).

وهذا يعطينا دليلاً واضحًا على أن اللفظ الواحد عنده يمكن أن يكون مجازًا مرسلاً ويمكن أن يكون كناية.

ومما هو بسبب من حديث قطع لسان هذا الشاعر، وإعطائه ما يرضيه، واستلال سخيمة قلبه أنني وجدت في بعض المراجع أن الذي أمره الرسول ﷺ بقطع لسان العباس علي بن أبي طالب، وليس بلالا كما جاء في الحديث الذي أخذه صاحب لسان العرب عن ابن الأثير، وقد سبق ذكره آنفا، فقد رووا أن العباس بن مرداس أنشد رسول الله ﷺ:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في مجمع
وما أنا دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال رسول الله ﷺ يا علي اقطع لسانه عني، فقبض علي عليه السلام على يده، وخرج به فقال أقاطع أنت لساني يا أبا الحسن؟ فقال إني لممض فيك ما أمر... ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ ما أحببت، أو كما قال[1].

وسواء كان المأمور هو عليًا، أو بلالاً – رضي الله عنهما – فإن الذي تتوخاه هذه السطور، وتتحراه هو جعل صاحب لسان العرب (لسانه) في قوله ﷺ: (اقطعوا عني لسانه) كناية عن الكلام بعد أن اعتبره في موضع آخر مجازًا مرسلاً عن الكلام.

ومن هذه الكلمات التي ألمع إلى أنها مجاز مرسل، وصرح بأنها كناية كلمة (الرقبة) فقد ذكر في بعض المواضع أنها تطلق على ذات الإنسان كلها تسمية للشيء باسم جزئه فقال: «.... والرقبة العنق، وقيل أعلاها.. والرقبة المملوك وأعتق رقبة أي نسمة، وفك رقبة أطلق أسيرًا سميت الجملة باسم العضو لشرفها. التهذيب وقوله تعالى في آية الصدقات ﴿ **وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ** ﴾ [التوبة: ٦٠] قال أهل التفسير في الرقاب إنهم المكاتبون ولا يبتدأ منه مملوك فيعتق، وفي حديث قسم الصدقات (وفي الرقاب) يريد المكاتبين من العبيد يعطون نصيبًا من الزكاة يفكون بها رقابهم، ويدفعونه إلى مواليهم»[2].

---

(١) ينظر تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع: ٢٥١، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة: ١٣٨٣هـ.

(٢) لسان العرب: ٣/١٧٠١ (رقب).

فقوله بعد أن ذكر أن الرقبة أطلقت على النسمة، وعلى الأسير (سميت الجملة – أى جملة الإنسان – باسم العضو لشرفها) أى لشرف الرقبة على سائر أجزاء الجسم، يومئ إلى أن إطلاق الرقبة على ذات الإنسان مجاز مرسل علاقته الجزئية.

ولكنه أورد فى الموضع نفسه عن ابن الأثير أن إطلاق العنق على ذات الإنسان كناية، ومعلوم أن الرقبة والعنق شيء واحد[1] يقول فى ذلك: « .... وفى الحديث كأنما أعتق رقبة قال ابن الأثير وقد تكررت الأحاديث فى ذكر الرقبة وعتقها وتحريرها وفكها، وهى فى الأصل العنق فجعلت كناية عن جميع ذات الإنسان، وتسمية للشيء ببعضه، فإذا قال أعتق رقبة فكأنه قال أعتق عبداً أو أمة، ومنه قولهم دينه فى رقبته... وفى حديث بلال والركائب المناخة لك رقابهن وما عليهن أى ذواتهن وأحمالهن...»[2].

فنجده قد ارتضى قول ابن الأثير، واحتذى حذوه فى جعل الرقبة أو العنق كناية عن جميع ذات الإنسان، أو ذات الحيوان كما فى جعل رقاب الركائب كناية عن ذواتهن، وإن كان من الملحوظ أن ثمة تداخلاً فيما قاله بين الكناية والمجاز المرسل فى قوله: (.... وهى فى الأصل العنق فجعلت كناية عن جميع ذات الإنسان، وتسمية للشيء ببعضه).

فصدر العبارة ناطق بأن العنق كناية عن ذات الإنسان، وعجزها ناطق بأنها مجاز مرسل عن الإنسان، وهذا يعتبر دعماً ومساندة لكونه يجعل اللفظ الواحد مجازاً مرسلاً، وكناية.

ومن الكلمات التى بدا أن فى تناوله لها تداخلاً بين المجاز المرسل، والكناية أيضًا كلمة (قحف) فقد جعلها كناية عن الرأس كله، أومجازا مرسلاً عنه .. عندما قال: «القحف العظم الذى فوق الدماغ من الجمجمة، والجمجمة التى فيها الدماغ، ومنه حديث[3] أبى هريرة فى يوم اليرموك فما رئى موطن أكثر قحفًا ساقطًا أى رأساً فكنى عنه ببعضه أو أراد القحف نفسه....»[4].

فنرى فى قوله: (فكنى عنه ببعضه) تداخلاً، أو إن شئنا الدقة دمجًا بين الكناية

---

(١) ينظر لسان العرب: ٣/ ١٧٠١ (رقب).
(٢) المصدر نفسه والموضع.
(٣) يبدو أن الحديث هنا بمعناه اللغوى.
(٤) لسان العرب: ٥/ ٣٥٣٧ (قحف).

والمجاز المرسل، فإن قوله (فكنى عنه) صريح فى أن لفظ (قحف) كناية عن الرأس، وقوله (ببعضه) يشير إلى أنه مجاز مرسل علاقته الجزئية عن الرأس نفسه.

ومن الكلمات التى أشار صاحب اللسان إلى أنها يمكن أن تكون مجازاً مرسلاً وكناية أيضاً كلمة (عذرة)[1] وهى سلح الإنسان وغائطه، فقد قال فى أحد المواضع: «والعاذر والعذرة الغائط الذى هو السلح، وفى حديث ابن عمر أنه كره السلت الذى يزرع بالعذرة[2] يريد الغائط الذى يلقيه الإنسان، والعذرة فناء الدار، وفى حديث على أنه عاتب قوماً فقال ما لكم لا تنظفون عذراتكم[3] أى أفنيتكم.. قال أبو عبيد وإنما سميت عذرات الناس بهذا، لأنها كانت تلقى بالأفنية، فكنى عنها باسم الفناء، كما كنى بالغائط وهى الأرض المطمئنة عنها....»[4] واضح من هذا الكلام الذى ذكره أن العذرة فى الأصل فناء الدار، وسميت عذرات الناس بهذا الاسم؛ لأنها كانت تلقى بالأفنية، وغنى عن البيان أن دور العرب، وأفنيتهم كانت رحبة واسعة لا تضيق بحاجاتهم، وضروريات حياتهم.

وبناء على ذلك تكون كلمة (عذرة) أو (عذرات) مجازاً مرسلاً علاقته المحلية أطلق فيه المحل على الحال فيه.

وفى الوقت نفسه نجد أن عبارة أبى عبيد التى أوردها صاحب اللسان فى عجز كلامه الذى سبق ذكره تتضمن أن العذرة أى فناء الدار كناية عن غائط الإنسان الذى يلقيه فى هذا المكان، ويتجلى ذلك فى قوله: (.... فكنى عنها باسم الفناء كما كنى بالغائط وهى الأرض المطمئنة عنها) أى العذرة.

وفى علاقة المحلية كذلك أورد صاحب لسان العرب عدة أقوال فى معنى الثياب من قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] منها أنها النفس فقال: «... والعرب تكنى بالثياب عن النفس وقال:

---

(١) أعتذر عن ذكر مثل هذه الألفاظ، ولعله يشفع لى أن هذه لغة العرب التى وسعت حياتهم، وعبرت عن حاجاتهم.

(٢) ينظر كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/ ١٩٩.

(٣) المصدر نفسه والموضع.

(٤) لسان العرب: ٤/ ٢٨٦٠ (عذر).

فسلى ثيابى عن ثيابك تنسل(١)

وفلان دنس الثياب إذا كان خبيث الفعل والمذهب، خبيث العرض قال امرؤ القيس:

ثياب بنى عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غران(٢)

وقال (الشماخ)(٣):

رموها بأثواب خفاف ولا ترى لها شبهًا إلا النعام المنفرا

رموها يعنى الركاب بأبدانهم، ومثله قول الراعى:

فقام إليها حبتر بسلاحه ولله ثوبا حبتر أيما فتى

يريد ما اشتمل عليه ثوب حبتر من بدنه»(٤).

فقد صرح فى حديثه المتقدم بأن الثياب كناية عن النفس، ويلوح شرحه لكلمة الثياب أو نحوها فى بعض الشواهد التى ساقها إلى أن الثياب مجاز مرسل عن ذات الإنسان وبدنه، فقد فسر قول ليلى الأخيلية (رموها بأثواب) بأنهم رموها بأبدانهم، وغير خاف أن الأثواب محل لهذه الأبدان، وكذلك فسر قول الراعى (ولله ثوبا حبتر) بما اشتمل عليه هذان الثوبان من بدنه، فهما محل لذلك البدن، وبدنه حال فيها وهذا ظاهر فى علاقة المحلية.

وهكذا نجد أن المجاز المرسل والكناية يمكن أن يتواردا على لفظ واحد، وإن كان

---

(١) هذا عجز بيت لامرئ القيس وصدره: وإن تك قد ساءتك منى خليقة.. ورواية المعلقات التى شرحها الزوزنى (ثيابى من ثيابك) باستبدال الحرف (من) بالحرف (عن) ينظر المعلقات السبع شرح الزوزنى: ١٤.

(٢) فى هامش لسان العرب ذكر أحد محققيه أن البيت فى ديوانه: وأوجههم عند المشاهد غران: ١/٥١٩ (ثوب).

وذكر صاحب اللسان نفسه فى موضع آخر عن ابن برى أن المشهور فى بيت امرئ القيس.. وأوجههم عند المشاهد غران.

أى إذا اجتمعوا لغرم حمالة أو لإدارة حرب وجدت وجوههم مستبشرة غير منكرة... ٥/٣٢٣٤ (غرر).

(٣) نسب محققو لسان العرب هذا البيت إلى الشماخ، وذكر ابن قتيبة أن البيت لليلى الأخيلية: ١٤٢ تأويل مشكل القرآن، وأيد محقق كتاب ابن قتيبة أن البيت لها.

ينظر هامش تأويل مشكل القرآن: ١٤٢ تحقيق السيد أحمد صقر.

(٤) لسان العرب: ١/٥١٩ (ثوب).

ذلك يبدو فى بادئ النظر تناقضًا ظاهرًا؛ لأن المجاز قرينته مانعة من إرادة المعنى الحقيقى، والكناية قرينتها مجوزة لإرادة ذلك المعنى[1].

وقبل أن أعرض لإزالة هذا التناقض الظاهر عن هذا الاستعمال أشير إلى أن إطلاق مصطلح الكناية، والمجاز المرسل على اللفظ الواحد أمر لم ينفرد به اللغويون الذين سطر كلامهم صاحب لسان العرب، وذكرت طرفًا منه آنفًا، بل شاركهم فى هذا الإطلاق أرباب البيان، وجهابذة البلاغة - فمثلاً - صاحب الكشاف وهو علم من أعلامهم يشار إليه بالبنان يذكر صورًا من المجاز المرسل، ويسميها كناية، فقد قال فى قوله تعالى: ﴿ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴾ [المدثر: ٤].

«وقيل هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال، ويستهجن من العادات يقال فلان طاهر الثياب، وطاهر الجيب والذيل والأردان، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب، ومدانس الأخلاق، وفلان دنس الثياب للغادر، وذلك لأن الثوب يلابس الإنسان، ويشتمل عليه فكنى به عنه»[2]. وقد عقب الدكتور محمد أبو موسى على ذلك بقوله:

«فالتعبير عن الإنسان بثوبه من المجاز المرسل الذى علاقته المجاورة، أو الحالية، ولكن الزمخشرى يجعله من الكناية.. ويمكن أن يكون المثال الواحد كناية لغوية باعتبار، ومجازًا مرسلاً باعتبار آخر...»[3].

والكناية اللغوية هى المفردة التى تعبر فيها عن المكنى عنه بلفظ واحد مثل كلمة (نعجة) فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ** ﴾ [ص: ٢٣] فإن هذه الكلمة فى الموضعين كناية عن المرأة[4].

وقد رأينا فيما تقدم ذكره أن جميع الكنايات التى أشار صاحب لسان العرب إلى أنها تكون مجازًا مرسلاً أيضًا هى كنايات لغوية مفردة.

وقد وجدت الإمام فخر الدين الرازى، وهو من البيانيين الذين لهم جهد يذكر فى البيان العربى يذكر فى تفسيره الكبير كثيرًا من هذه الكنايات المفردة، ثم يذكر فى مواطن أخرى من ذلك التفسير ما يفيد أنها مجاز مرسل[5].

---

(١) ينظر - مثلا - بغية الإيضاح: ٣/١٧٣.
(٢) الكشاف: ٤/١٥٦.
(٣) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى: ٤٦٧.
(٤) الطراز للعلوى: ١/٤٢٧.
(٥) ينظر المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى رسالة دكتوراه ٣٦٢ مكتبة وهبة - القاهرة - ط أولى سنة ١٩٩٩.

ولا بأس أن أورد نموذجًا واحدًا دليلاً على ذلك، فقد ذكر فى قوله تعالى: ﴿ ... قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧].

أن الاشتعال بالاستهزاء لا يكون إلا بسبب الجهل، ومنصب النبوة لا يحتمل الإقدام على الاستهزاء، فلم يستعذ موسى عليه السلام من نفس الشيء الذى نسبوه ولكنه استعاذ من السبب الموجب له كما قد يقول الرجل عند مثل ذلك أعوذ بالله من عدم العقل، وغلبة الهوى والحاصل أنه أطلق اسم السبب على المسبب مجازاً»[١].

فجعل إطلاق الجهل على الاستهزاء مجازاً مرسلاً، لكنه عند تفسير قوله تعالى مخاطبًا نبيه نوحًا عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] جعل الجهل كناية عن الذنب فقال: «جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور فى القرآن قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النساء: ١٧] وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)»[٢].

وهنا نأتى إلى إزالة ما يبدو من تناقض ظاهر يتمثل فى إطلاق مصطلح المجاز المرسل والكناية على لفظ واحد، مع أن قرينة المجاز مانعة، وقرينة الكناية غير مانعة، وقد تصدى لهذه المهمة بجدارة واقتدار ابن يعقوب المغربى – رحمه الله – فبين أن اللفظ الواحد لا يكون مجازاً مرسلاً، وكناية فى آن واحد، ونظرة متساوقة، وإنما يتأتى ذلك إذا تباينت النظرة إليهما، وانفكت جهة الإطلالة عليهما، واختلفت الحيثية المعتبرة فيهما، فكلمة النبات – مثلاً – تكون مجازاً مرسلاً عن الغيث من حيث التلازم بينهما، وتكون كناية عنه من حيث كون النبات رديفًا للغيث، وتابعًا له فى الوجود[٣].

وبناء على تلك النظرة ينقشع عن هذا الاستعمال ما يبدو من تعارض فى بادئ الرأي، ويمكننا أن نقول – مثلاً – إن لفظ (اللسان) يكون مجازاً مرسلاً عن الكلام لما بينهما من تلازم الآلية، وما يصدر عنها، ويكون كناية عن الكلام؛ لأنه تابع له، وأثر من آثاره.

---

(١) التفسير الكبير: ٢/ ١٢٦. (٢) التفسير الكبير٩ ٢/ ٤، ٥.

(٣) ينظر مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح: ٤/ ٢٤٦، ٢٤٧ شروح التلخيص.